قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر
بين التأسيس النظري والوعي والثقافة السننية

عبد العزيز برغوث*

مقدمة

مما لا شك فيه أن موضوع السنن الإلهية[1] من أكثر الموضوعات التي حفل بها القرآن الكريم، ووجه إلى أهميته وضرورته القصوى في فهم حركة الوجود وقوانين الكون وطبائع الحياة وسنن العمران والتاريخ ومناهج الاستخلاف وسبل التحضر. كما دلت عليه هدايات الرسالة النبوية الخاتمة من خلال توجيهات الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله وسائر أنشطته التي تصب في إطار تفهيم الوحي للأمة وتبيينه، وتقديم النموذج الحضاري الشمولي القدوة للرسالة الاستخلافية والوظيفة الشهودية، التي أنيطت بالإنسان المسلم وأمته التي وصفها القرآن بالخيرية والوسطية في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ (آل عمران: 110)، وقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (البقرة: 143).

* أستاذ مشارك في كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية/ ماليزيا. hadharah@hotmail.com

[1] للإطلاع على مفهوم السنن الإلهية انظر الدراسات الآتية: فرحات، أحمد حسن. **سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول**، عمان: دار عمار، 1999م؛ الصدر، محمد باقر. **السنن التاريخية في القرآن**، بيروت: دار التعارف، 1989؛ عرجون، محمد الصادق. **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**، جدة: الدار السعودية للتوزيع، 1984؛ زيدان، عبدالكريم. **السنن الإلهية في الأمم والمجتمعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1993.

ولما كانت حقيقة السنن الإلهية ووظيفتها وموقعها من الاستخلاف والعمران والتحضر والشهود بهذا الشأن الكبير والدور الحيوي، فإن اهتمام الأمة بها على مستوى الفهم، والاستكشاف، والتسخير، والاستثمار، والممارسة، والتطبيق، لا ينبغي أن يقل عن هذه المكانة، وهذا الموقع المتميز والفاعل. وليس من المعقول أن يغيب هذا المفهوم العظيم، وهذا المصدر الإلهي الغني للقوة والاقتدار والمكنة والفعالية، عن وعي الأمة وعن قرائح وعقول جموع علمائها ورجالها، الذين حملوا رسالتها الحضارية الاستخلافية للعالم عندما فهموا هذه السنن وسخروها، وانسجموا في فهمهم وممارستهم معها لردح طويل من الزمن. ولكن، وعلى الرغم من هذه الأهمية والمكانة التي شغلتها المسألة السننية في وعي الأمة وممارستها، وخاصة في المراحل المبكرة والمتقدمة للفكر الإسلامي ولحركة الحضارة الإسلامية، إلا أن هناك إشكالا قد أثير حولها بصورة احتاج فيها الأمر إلى التوضيح، وإزالة اللبس الذي قد يؤدي إلى تحريف الوعي، أو تزييف الحقائق التاريخية، أو غمط حقوق علماء الأمة، أو الاستنقاص من شأن جهودهم وأعمالهم العظيمة في مجال بناء الوعي السنني[2] ونشر الثقافة السننية في أوساط أبناء الأمة.

إن الإشكال الذي يثيره البحث يمكن تقسيمه إلى شقين هما: أولهما القول بأن جهود الفكر الإسلامي المبكر[3] لم تؤسس علما مستقلا يعنى بدراسة السنن الإلهية على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأخرى[4]. وثانيهما: وهو ناتج عن القول الأول وهو أن حضور الفقه السنني أو الاهتمام بالسنن في جهود العلماء المتقدمين كان ضئيلا وضنينا بشكل كبير، قد يوحي في بعض الأحيان بضمور هذا الفقه أو العلم في حياة الأمة وعلمائها المتقدمين إلا في شذرات متنافرة هناك وهناك، وباستثناء ملاحظات شيخ

---

[2] إن مفهومي الوعي السنني والثقافة السننية في هذا البحث مفهومين محوريين لإدراك حقيقة جهود علماء الأمة المتقدمين، ومدى إسهامهم في مجال الدراسات المتعلقة بالسنن الإلهية فهما وتسخيرا.

[3] الحديث هنا عن موضوع السنن في الفكر الإسلامي لا ينسحب إلى تقديم دراسة شاملة لكل هذا الفكر من أجل إثبات سُننية نزعته وتوجهاته، فهذا عمل ضخم لا يقوى عليه الباحث، ولكن المقصود هو تقديم مؤشرات ودلائل عامة تساعد على تفهم واكتشاف مدى اهتمام العلماء بموضوع السنن ونزعتهم السننية في التفكير.

[4] وهنا يثور السؤال: هل عدم وجود علم مستقل للسُنن الإلهية في جهود العلماء المتقدمين دليل على عدم اهتمامهم بالسنن عموما وعدم تشكيلهم لوعي أو ثقافة سُننية علمية عملية؟.

الإسلام ابن تيمية في بعض مقالاته وفتاويه وابن حزم الأندلسي في بعض مؤلفاته، وعند بعض العلماء الآخرين وهم من القلائل، والجهد النوعي المتميز الذي أبدع فيه ابن خلدون وبصورة –يراها البعض مفاجأة أو طفرية– علم العمران البشري والذي أسس به لفقه سنني عمراني حضاري فريد.

فإشكالية البحث تدور حول الأسئلة الآتية: هل عمل علماء المسلمين القدماء على بناء علم للسنن على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأخرى؟. وهل كان من أولوياتهم وأهدافهم تأسيس ذلك العلم بالمعنى والمفهوم الذي نحتاج إليه اليوم؟ أم أن وعيهم وفهمهم وطبيعة زمانهم وظروفهم ونظرتهم للسنن لم تستدع تأسيس علم مستقل للسنن، والاكتفاء بالممارسة والوعي، وتحويل ذلك العلم التنظيري إلى عمل ووعي وثقافة عامة في سلوك الأمة والمجتمع؟

ثم هل عدم وجود علم خاص بالسنن الإلهية، يؤدي إلى استنتاج أن هناك ضحالة في مجال الفقه السنني والوعي السنني، والاهتمام بالسنن وفهمها وتسخيرها لدى علماء الأمة في العصور المبكرة لتطور الفكر والحضارة الإسلامية؟ وإلى أي مدى نستطيع أن نثبت بأن علماء الأمة المتقدمين قد اهتموا بموضوع السنن الإلهية، واشتغلوا به وأبدعوا في التأسيس للفقه والوعي والثقافة السننية التي كانت وراء قوة الحضارة الإسلامية لقرون عديدة؟

وإلى أي مدى يمكن الاستفادة من جهود أولئك العلماء في التأسيس لعلم السنن الإلهية الذي نحتاج إليه اليوم؟ هذه الجملة من التساؤلات وغيرها ستعالج في البحث الحالي ولكن بصورة مجملة وليست مفردة. وسوف لا يجيب البحث عن كل سؤال مطروح ولكنه سيقدم إطارا عاما يعين على تقديم إجابات منهجية موضوعية للإشكالات المطروحة. وسيتبع البحث المنهج الاستقرائي، والتحليلي، ومنهج تحليل النصوص. والنظر فيها؛ لتقديم الإجابات المطلوبة لتحرير محل الإشكال، وإزالة اللبس الواقع في نظرتنا إلى مسألة حضور علم السنن. والوعي الحضاري السنني، والثقافة السننية، في جهود علماء المسلمين المتقدمين، وذلك عبر دراسة بعض النماذج التي ستوضح لنا نظرة العلماء السابقين إلى

مسألة السنن الإلهية والتعامل معها فهما وتوظيفا وتسخيرا. والنقاط الأساسية التي سيعالجها البحث هي:

أولا: الإطار النظري لدراسة قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر.

ثانيا: حضور الوعي السنني والثقافة السننية وصوره المتنوعة في جهود العلماء المتقدمين.

ثالثا: نماذج للوعي السنني، والثقافة السننية من خلال جهود العلماء المتقدمين.

أولا: الإطار النظري لدراسة قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر

1. في مصطلحات الدراسة ومفاهيمها الأساسية:

قبل عرض النقاط الأساسية في البحث من الأهمية تقديم تعريف لأهم المصطلحات التي سيتكرر ورودها في ثنايا الدراسة وهي: التأسيس النظري للسنن، الوعي[5] السنني، والثقافة السننية الحضارية. ويقصد بالتأسيس النظري في البحث: النظر إلى السنن بوصفها علما قائما بذاته له أطره المعرفية والفلسفية، وخلفياته الفكرية، وموضوعه، وأهدافه، ومجالاته، ونظرياته، وفروعه، وأدواته البحثية المنهجية، ومصطلحاته، وتطبيقاته، وفنونه. وقبل ذكر التعريف الذي يتبناه البحث لمفهوم الوعي السنني من الأهمية الإشارة إلى بعض التعريفات المتداولة بين الباحثين. فيقول أحد الدارسين في تحديده لمعنى الوعي[6] بأنه: "شعور الكائن بما في نفسه،

---

[5] بكار، عبدالكريم. **تجديد الوعي**، الرياض: دار المسلم، 1421هـ.

[6] يقول ابن فارس: "الواو والعين والياء: كلمة تدل على ضمّ الشيء. ووعيتُ العلمَ أعيه وعيا. وأوعيت المتاع في الوعاء أُعيه." راجع، معجم مقاييس اللغة، ج6، ص 124. وقد ذكرت كلمة تعيها ووعاها وواعية في مواضع عدة من القرآن الكريم هي: ﴿لِنَجعَلَهَا لَكُم تَذكِرَة وَتَعِيَهَا أُذُن وَاعِيَة﴾ (الحاقة 12)؛ ﴿بَل الذِينَ كَفَرُوا يُكَذبُونَ * وَاللهُ أَعلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (الانشقاق: 23)؛ ﴿تَدعُو مَن أَدبَرَ وَتَوَلى * وَجَمَعَ فَأَوعَى﴾ (المعارج: 18) وتدل المعاني القرآنية بصورة عامة على الفهم والإدراك والحفظ والجمع. كما وردت كلمة وعي في السُنة النبوية في مواطن عدة منها: "نضر الله امرءا سمع مني مقالة فحفظها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع"، رواه الترمذي وغيره. ومعنى أوعى هنا أقدر على الفهم والإدراك والبيان والإيصال والتبليغ للمعنى المقصود.

وما يحيط به"[7] فحينما يكون الإنسان واعيا بالشيء فهو يمتلك القدرة على فهم ذاته أولا وما يدور في نفسه وكذلك إدراكه للواقع المحيط به، ويقول باحث آخر: "ومع تقدم العلم وتعقد المصطلحات والمفاهيم أخذ مدلول (الوعي) ينحو نحو العمق والتفرع والتوسع، ليدخل العديد من المجالات النفسية والاجتماعية والفكرية. ويمكن ضبط معناه بأنه "الإدراك العقلي الواضح بمتطلبات العمل الناجح" وبالتالي فإن أي مشروع إنساني لا بد أن يسبق بتفكير موضوعي يضمن سلامته وتوافقه مع سنن الحياة. والوعي المجرد من العمل –في وجهة نظري– سفسطة وخيال، وخلاصة القول أن مقصدنا من استخدام كلمة (الوعي) في سياق المفهوم الحضاري الشامل للمدنية؛ يمكن تحديده بأنه: أدراك الفرد ومؤسسات المجتمع المختلفة بمسؤولياتهم الكبرى في بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة، والسعي في دفع عملية النهضة والتقدم المعنوي والمادي من خلال إصلاح الفكر والسلوك والواقع".[8]

فالوعي هنا حين يربط بالحضارة أي الوعي الحضاري فهو يدور حول الإدراك والفهم، وكذلك ظهور ذلك الفهم على مستوى الفعل والممارسة التي تؤدي إلى النهضة والتحضر، بشكل متوازن يجمع البعدين المادي والمعنوي. ويتحدث باحث آخر عن الوعي حينما يكون مربوطا بمفهوم التاريخ أي عن الوعي التاريخي فيقول هو: "ذلك التبصر الدائم والهادف بالتاريخ القريب والبعيد، الذاتي والموضوعي، الحاصل –أي: التبصر– من خلال التوغل المركز في قراءة صفحات التجارب البشرية الكثيرة والمتنوعة، وفحصها وتدبر أبعادها وخلفياتها، واكتشاف المؤثرات والسنن التي ساهمت في بعثها وإيجادها؛ قصد التزود والاعتبار، ومحاولة تفهم الأسس السيكولوجية للكثير من الأحداث والصراعات والانفعالات والتأثيرات والحروب...الحاصلة والمتولدة عبر الأيام في تاريخ البشرية الحافل والطويل."[9] هنا يرتبط الوعي بالتبصر والقدرة على استلهام العبر

---

[7] بكار، **تجديد الوعي**، مصدر سابق، ص6.

[8] القحطاني، مسفر بن علي. **أزمة الوعي الحضاري**، أستاذ بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، المملكة العربية السعودية، http://saaid.net/Doat/msfer/12.htm

[9] عبار، عبدالقادر. **المسلمون وضرورة الوعي التاريخي**، الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1404هـ، (سلسلة كتاب الأمة؛ 42).

واكتشاف السنن. ويعرف الأستاذ الطيب برغوث الوعي السنني بقوله: "هو استيعاب معرفي ومنهجي وتسخيري أو وظيفي متكامل... للسنن الإلهية الفاعلة في الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ... والذي يعمق لدى الصفوة والمجتمع معا.. الإحساس بسلطان السنن الإلهية، وهيمنتها على الحياة البشرية، بلا محاباة لأحد، أو تحيز ضد أحد، فيتعزز الاهتمام بالثقافة السننية؛ بحثا واكتشافا وتوطينا من جهة، كما تتعزز الخبرات التسخيرية أو الاستثمارية بشكل فعال من جهة أخرى."[10]

وتأسيسا على كل ما سبق فإن المقصود بالوعي السنني في هذه الدراسة هو: القدرة والنضج والخبرة والفعالية والقوة التأثيرية التي تتحصل لدى الفرد والمجتمع، وتمكنهما من الانسجام البصير والتفاعل الإيجابي مع سنن الله، إحساسا وفهما واكتشافا وممارسة وتطبيقا وتسخيرا، وذلك من أجل تحقيق الترقي الاستخلافي في الحياة؛ بما يعنيه من تحقيق لأقصى درجات الفعالية في الترقي الروحي والمعرفي والنفسي والاجتماعي والسلوكي والعمراني والحضاري المتناغم مع سنن الله وقوانينه في الوجود.

وأما فيما يتعلق بمفهوم الثقافة السننية فهو كذلك مفهوم أساسي ومهم وله صلة كبيرة بمفهوم الوعي السنني. والثقافة[11] عموما تعني أسلوب الحياة وطريقة السلوك، كما تشير كذلك إلى الفنون والعادات والتقاليد والآداب المتنوعة والأصوات والرموز واللغة

---

[10] برغوث، الطيب. **مدخل إلى سُنن الصيرورة الاستخلافية: دراسة في سُنن التغيير الاجتماعي**، كوالالمبور: آسليتا سيندرين برحاد، 2002، ز.

[11] ليس غرض البحث الحالي وهو تقديم دراسة مستفيضة لمفهوم الثقافة عموما ولكن تحديدا أوليا للثقافة من منظور إسلامي وذلك لربطها بمفهوم السنن. وقد وردت مادة (ثقف) في الكثير من قواميس اللغة المعتمدة. ومنها قول السمين الحلبي: "الثقفُ: الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه: رجل ثقف لقف، يقال: ثقفته أثقفته ثقفا، أي أدركته إدراكا بحذق. وثقفته، أي أدركته ببصري بحذق.، ثم تُجوز به، فيستعمل في مجرد الإدراك، ومنه: ﴿وَاقْتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم﴾ (البقرة: 191)، وقوله: ﴿فَإما تَثقَفَنهُم في الحَرب﴾ (الأنفال: 57). وثقفُ الرمح: قومته، فهو مثقف. والثقاف ما يُثقف به. انظر: الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ج1، ص 322–323. (مخطوط). نقلا عن الأشقر، عمر سليمان عبدالله. **نحو ثقافة إسلامية**، ط12 عمان: دار النفائس، 2002، ص20. وراجع ما ورد في تعريف مادة (ثقف) في ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، د.ت، ج1، ص 326؛ والبستاني، بطرس. **محيط المحيط**، بيروت: مكتبة لبنان، 1983، ج1، ص 191.

والدين والمهن والحرف والمهارات[12] وغيره. وعادة ما يقال إنها: "أسلوب الحياة السائدة في مجتمع من المجتمعات."[13] ولكن هذا التحديد للثقافة لا يعطيها وظيفتها الحضارية والاجتماعية ولا يبرز قيمتها في بناء الشخصية وتغيير الوعي والسلوك. ومن هنا نجد أن تعريف مالك بن نبي للثقافة أكثر التصاقا بما يريد هذا البحث التنبيه عليه. فيقول: "الثقافة أولا محيط معين يتحرك في حدوده الإنسان، فيغذي إلهامه، ويكيف مدى صلاحيته للتأثير عن طريق التبادل؛ والثقافة جو من الألوان والأنغام والعادات والتقاليد والأشكال والأوزان والحركات، التي تطبع على حياة الإنسان اتجاها وأسلوبا خاصا يقوي تصوره، ويلهم عبقريته ويغذي طاقته الخلاقة؛ إنها الرباط العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه."[14]

فهذا هو المفهوم الديناميكي الحيوي الفاعل للثقافة بوصفها مجالا للتربية والتغيير والصياغة للوعي والشخصية والتشكيل للعقل والنفسية والسلوك والقيم والأفعال. "فهي ذلك الدم في جسم المجتمع الذي يغذي حضارته ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة."[15] والثقافة كما يحاول هذا البحث التأكيد عليها وبصورة خاصة الثقافة الإسلامية هي: ذلك الكل المركب من الوعي والقيم والأخلاق والجماليات والمعارف والفنون والآداب والسلوكيات وأنماط الحياة، التي غذت الإنسان المسلم ورفدته بالرؤية والمنهج والشريعة والقيم والأخلاق والمعارف، التي جعلت منه إنسانا متحضرا حمل مشروع الاستخلاف ومارسه في شكل حضارة وعمران بشري.

فإذا كان مفهوم الثقافة بهذا التحديد والأفق فإنه من الأهمية أن نحدد مفهوما للثقافة السننية بوصفها –في هذا البحث– محددا أساسيا مساعدا على تقديم الإجابة الموضوعية عن الإشكال المثار أمامنا. ويبدو –من خلال المطالعة في الجهود المتنوعة والتي اشتغلت

---

[12] راجع الساعاتي، سامية. **الثقافة والشخصية: بحث في علم الاجتماع الثقافي**، بيروت: دار النهضة العربية، 1983.

[13] غربال، شفيق وآخرون. **الموسوعة العربية الميسرة**، القاهرة: دار المعارف، 1961، ص 39.

[14] ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، دمشق: دار الفكر، 1984، ص102–103.

[15] ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1981، ص86–87.

بالثقافة والسنن– أنه لا توجد هناك محاولات كثيرة في هذا الصدد. ويعد عمل الأستاذ الطيب برغوث في سلسلة كتبه المعنونة (بدراسات في الوعي السنني) من الأعمال الرائدة في هذا السياق. وقد عرف الثقافة السننية[16] بقوله هي: "اتسام المحتوى العقدي والمعرفي والمنهجي والاجتماعي... المؤطر لوعي الإنسان بدورته الوجودية، ولعلاقاته الاستثمارية بميزانيته التسخيرية، والمكيف لاستجاباته الحضارية مع وظيفته الوجودية، والتحديات التي تشرط أداءها... اتسام ذلك كله بالتناسق والانسجام مع السنن الإلهية المطردة في المفردات الكونية، وأن لا تصادمها."[17] إن المفهوم من هذا التحديد هو أن المجتمع الذي يتمتع بالثقافة السننية، هو الذي ينسجم عمله في مجال الاعتقاد والمعرفة والمنهج والاجتماع البشري والعمران الحضاري مع سنن الله سبحانه وتعالى. وبعبارة أخرى يصبح النشاط الذي يمارسه أفراد المجتمع نشاطا لا يتصادم مع السنن الإلهية، وبالتالي تعتبر الثقافة السننية بمثابة "الوعي العقدي والمعرفي والمنهجي والتسخيري والإنجازي المكين، الذي يمنح الفرد والمجتمع، المزيد من الاقتدار على تلبية حاجاتهم المعرفية والروحية والاجتماعية والحضارية...ومواجهة التحديات التي تحول دون بلوغهم أقصى مستويات الإشباع لهذه الحاجات."[18]

تأسيسا على ما سبق من التحديدات فإن البحث الحالي يعرف الثقافة السننية على أنها: أسلوب الحياة وطرائق السلوك وأنساق الوعي ومكونات الواقع الفردي والاجتماعي والحضاري، الذي تنسجم فيه أفهام الناس وممارساتهم وأعمالهم الفكرية والمعرفية والعقدية والروحية والسلوكية والاجتماعية والحضارية، مع سنن الله سبحانه وتعالى في الآفاق والأنفس

---

[16] ويعرفها في موقع أخر بقوله: "الثقافة السننية بما هي وعي بسنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على حركة الصيرورة الاستخلافية من جهة، ووعي بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، المهيمنة على حركة الصيرورة التسخيرية من جهة أخرى، فإنها تقتضي وعيا منهجيا مكينا؛ لأن تحقق الوعي المعرفي والاستثماري بكل هذه الدوائر والمستويات من المنظومات السننية مرتبط بالمنهج والوعي المنهجي." برغوث، الطيب. **مدخل إلى الصيرورة الاستخلافية**، مصدر سابق،ص 109.

[17] برغوث، الطيب. **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، كوالالمبور: آسليتا سيندريان برحاد، 2002، ص28.

[18] المصدر السابق، ص 28.

والهداية، ويتحقق فيه مشروع الاستخلاف الذي يكون فيه الإنسان في أقصى فعاليته على مستوى العبادة والإعمار والإنقاذ والتعارف[19] والشهود الحضاري.

والبحث الحالي يحاول أن يثبت أن جهود علماء الأمة ورجالاتها في المراحل المبكرة للحضارة الإسلامية، استطاعت أن تفهم هذا المعنى للسنن الإلهية وتسخرها وتحولها إلى ثقافة سننية، أصبحت جزءا لا يتجزأ من الشخصية والوعي والحركة العامة للحضارة الإسلامية وللاجتماع العمراني الحضاري الإسلامي، وذلك بغض النظر عن تأسيس علم مستقل للسنن من عدمه. فالنقطة المهمة التي ينبغي أن تتوضح هي أن الوعي السنني والثقافة السننية قد تجسدت في أعلى درجات حضورها وفعاليتها في جهود علماء الأمة، وفي حركة الأمة الحضارية بصورة عامة لقرون عديدة، قبل أن يتخلف ويتمزق ذلك الوعي السنني تتهاوى تلك الثقافة السننية التي كان من أعظم نتائجها السلبية سقوط الحضارة الإسلامية وتراجعها عن مواقع الريادة والفعالية الحضارية.

2. السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر بين التأسيس النظري والوعي والثقافة السننية

يثير بعض الباحثين والدارسين إشكالية في وعينا الحضاري المعاصر مفادها: أن قضية السنن الإلهية بوصفها علما قائما بذاته وثقافة حضارية وفقها مجتمعيا، لم تكن حاضرة في كتابات وأعمال قطاع كبير من مجموع علماء الأمة –في العصور المتقدمة– الذين اشتغلوا بمسائل الفكر والمعرفة والعلم وسائر فعاليات العمران والبناء الحضاري للأمة. والحضور الفعلي لهذا المفهوم في الكتابات التأسيسية المنهجية النظرية يكاد يكون معدوما إلا في القليل النادر. ويبدو من بعض الآراء حول هذه المسألة أن هناك غيابا واضحا لعلم يسمى "علم السنن" أو الفقه السنني، على غرار الكثير من العلوم العقلية والنقلية التي اجتهد فيها علماء الأمة المتقدمين، تأسيسا وتنظيرا وتنهيجا وتطبيقا وممارسة. وتذهب جل المزاعم –التي سيشار إلى بعضها لاحقا– أنه لم تظهر جهود تأسيسية لعلم السنن بالوجه المطلوب والمنتظر من علماء

---

[19] برغوث، عبدالعزيز. **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1995، (سلسلة كتاب الأمة؛ 43).

عظام أبدعوا في الكثير من العلوم والمعارف والفنون. وكأن هذا الافتراض أو الزعم يرمي باللوم والتقصير على الحركة العلمية والفكرية الإسلامية المبكرة، في عدم تركها تراثا معرفيا يعنى بعلم السنن موضوعا ومنهجا وتطبيقات. كما توحي بعض الكتابات المعاصرة أن مفهوم السنن وتوظيفاته كانت ضئيلة لدرجة يصعب معها العثور على كتابات متخصصة وعميقة في الموضوع عند علماء الأمة المتقدمين.

وكثيرا ما يعتبر بعض الباحثين أن ابن خلدون وجهده في مقدمته عن العمران البشري هو نقطة التحول العظمى في التعامل مع قضية السنن والاشتغال بها بصورة منهجية موضوعية. كما يشار في مرات أخرى إلى بعض ملاحظات شيخ الإسلام ابن تيمية حول مسألة السنن. فمثلا يقول أحد الباحثين "بيد أن القرآن قد تعرض لموضوع السنن في أكثر من موضع، متيحا بذلك الفرصة لتداولها في الفكر الإسلامي بصورة واسعة، كسائر الموضوعات القرآنية التي توسع فيها العلماء بعد إشارة القرآن إليها، إلا أن حظ علم السنن من ذلك كان ضئيلا، سوى[20] تلك الإشارات التي ترد من حين لآخر من خلال كتب التفسير العامة."[21] فههنا إشارة إلى ضآلة الحصيلة المعرفية والفكرية للجهود المتعلقة ببناء علم خاص بالسنن الإلهية على غرار العلوم الآخرى، مما قد يوحي للقارئ بغياب هذا النوع من الفقه أو الوعي العظيم الذي أحله القرآن الكريم مكانه لا تضاهى ضمن اهتماماته؛ إذ عده بمثابة المدخل المحوري لفقه الاستخلاف، وفقه مناهج إنجاز مشروع الاستخلاف الإسلامي المؤسس على مقاصد العبادة والإعمار والإنقاذ والتعارف والشهود، وتشكيل حضارة العمران البشري المتوازن والمنسجم مع سنن الله وقوانينه في الحياة.

---

[20] من الأهمية أن أشير هنا إلى أنه على الرغم مما يزعمه الباحث هنا فإن ما يصل إلى نصف رسالته للدكتوراه، وهي تقترب من 300 صفحة كلها نقول من كتب الفكر الإسلامي المبكر ونصوص العلماء سواء من المفسرين أو المتكلمين أو علماء الشريعة والفقه وغيرهم.

[21] شوقار، إبراهيم آدم أحمد. "السنن الإلهية في القرآن الكريم: دراسة موضوعية"، (رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، 2003)، ص 8.

وفي ملاحظة أخرى يؤكد باحث آخر هذا المنزع في النظر إلى مسألة السنن في التراث الفكري الإسلامي المبكر بقوله: "ولعل قضية السنن هي واحدة من الحقائق في القرآن، التي لم تلق حقها من الدراسة من المفسرين القدامى والمحدثين –في حدود ما أعلم– إذا استثنينا إشارات بعض المحدثين[22]..."[23] إن ما يهمنا في التأسيس لإشكالية البحث الحالي هو التركيز على مسألة الإشارة إلى ضعف الاهتمام بالسنن وعلمه عند الأقدمين وليس المحدثين. وهذا ما يؤكده الباحث في ملاحظته السابقة، وهو نفس ما يشير إليه باحث آخر حينما قال: "وكما سبق وذكرنا فإن قضية السنن –التي تعد واحدة من الحقائق في القرآن الكريم– لم توف حقها من البحث والدراسة سواء من المفسرين القدامى أو المحدثين، فرغم قيام عدد من الدارسين بالحديث عن السنن الإلهية، ووضعهم بعض المؤلفات فيها، إلا أن هذا لا يتناسب مع أهميتها في منظومة المعرفة الإسلامية. وإذا استثنينا ما ذكره ابن تيمية وما نبه إليه الإمام محمد عبده، فإن الدراسات الحديثة في موضوع السنن تكاد تنحصر في عدد محدود جدا من المؤلفات والدراسات[24] الأكاديمية."[25]

وعلى الرغم من وجاهة هذا القول، إلا أنه يثير إشكالية مهمة وهي مدى حضور أو غياب مسألة علم السنن أو الفقه السنني أو الثقافة السننية في وعي الأمة عموما، وفي وعي علماء المسلمين الأقدمين بشكل خاص. فحينما يحصر مثلا –ربما بدون قصد– عمل علماء المسلمين القدماء في مجال السنن فيما ذكره ابن تيمية، فإن هذا الزعم يحتاج

---

[22] ذكر الباحث هنا جهود رشيد رضا وسيد قطب ومالك بن نبي ومحمد صادق عرجون وجودت سعيد.

[23] هيشور، محمد. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996، ص 16، (سلسلة الرسائل الجامعية؛ 30).

[24] ذكر منها: عرجون، محمد الصادق. **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم**، جدة: الدار السعودية للنشر، 1971؛ وسعيد، جودت. **سنن الله في الآفاق والأنفس**؛ والتليدي، عبد الله. **أسباب هلاك الأمم وسنة الله تعالى في القوم المجرمين والمنحرفين**، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1998؛ وزيدان، عبدالكريم. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994؛ هيشور، محمد. "سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها" (رسالة ماجستير)؛ والخطيب، فايز صالح. "عوامل فساد الأمم كما تصورها سورة الأعراف". (رسالة ماجستير).

[25] هيشور، محمد. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، مصدر سابق، ص10.

إلى دراسة تجلي حقيقة حضور أو غياب الفقه السنني، أو الاهتمام بموضوع السنن في جهود العلماء القدماء. ولمزيد بيان لإشكالية البحث تجدر الإشارة إلى ملاحظة أخرى أبداها باحث آخر في نفس السياق حينما قال: "عدم حضور مفهوم السنن الإلهية في تاريخ الفكر الإسلامي بشكل محدد ومبلور بشكل منهجي دقيق، ما عدا بعض الإشارات الفكرية عند عدد محدود جدا من علماء المسلمين من بينهم ابن تيمية رحمه الله تعالى."[26] ثم يعود نفس الباحث ليؤكد على وجود بعض المحاولات القديمة للحديث عن السنن الإلهية، ولكن لا يراها أعمالا مباشرة للتأسيس لعلم السنن فيقول: "ويمكننا ملاحظة ومتابعة عدد كبير من الجهود الفكرية التي بذلها عدد كبير من مفكري الإسلام، وفي مختلف المجالات في سبيل الكشف عن سنن الله تعالى العاملة في الكون والأنفس والمجتمعات[27]، ولكن دون ربط هذه الجهود القيمة بشكل مباشر واضح بمفهوم السنن الإلهية باستثناء –حسب علمي– اكتشافات ابن خلدون في مجال العمران البشري التي حرص على ربطها بسنن الله تعالى في الخلق."[28]

وعلى الرغم من تأكيد الباحث لوجود بعض الجهود –غير المباشرة– في مجال بناء الفقه السنني، وعلى الرغم من تقديمه بعض النماذج من جهود العلماء المتقدمين إلا أن مجمل الحديث يوحي بضحالة تلك الجهود وقلتها وعدم وصولها إلى مرحلة تأسيس علوم[29] قائمة

---

[26] محيي الدين، حازم زكريا. "مفهوم السنن عند محمد رشيد رضا من خلال تفسيره المنار"، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإمام الأوزعي للدراسات الإسلامية، بيروت، 2001)، ص43.

[27] لقد ذكر الباحث مجموعة من الأسماء سيشار إليها في الصفحات اللاحقة للبحث.

[28] محيي الدين، حازم زكريا. "مفهوم السنن"، مصدر سابق، ص 43.

[29] وربما نجد في تصريح أحد المفكرين المعاصرين المشتغلين بموضوع السنن وعلومها رأيا يتوسط الآراء السابقة، ويتسم بكثير من الدقة والموضوعية؛ بحيث يقرر صاحبه أن هناك غيابا لعلم مقعد ومؤسس في مجال السنن الإلهية إلا أن ذلك لا يعني غياب وعي العلماء وتسخيرهم للسُنن الإلهية في مختلف العلوم والمعارف ولو بشكل جزئي ولكنه كثير ومتناثر في مختلف الكتابات. يقول: "وقد كان أملي كبيرا أن أجد في مكتبة تفسير القرآن، وشروح السُنة والسيرة النبوية خاصة– لصلتهما المباشرة بمنبع أو منجم الوعي السنني القاعدي المطلق– ما يُشكل الإطار المعرفي والمنهجي لنظرية أو رؤية كلية متناسقة، في تحليل وتفسير وتأطير حركة التاريخ، في صيروراتها الحضارية المتعاقبة، لكن النزعة التخصصية المحددة في بعض المؤلفات، والنزعة الجزئية المستغرقة في الجزئيات في البعض= =الآخر، والنزعات الروحية الذاتية المستغرقة في الخرافة أحيانا، في قطاع آخر واسع من المؤلفات، وغياب أو ضعف نمو منظومة العلوم النقدية الجامعة، حالت دون تأسيس وبناء صرح هذه النظرية أو الرؤية الكلية المتناسقة في فلسفة التاريخ والحضارة. وشكل

بذاتها في ميدان السنن. وفي نفس هذا السياق تجدر الإشارة إلى نظرة أخرى في مسألة حضور علم السنن في جهود العلماء الأقدمين حيث يقول أحد الباحثين: "ويبدو كذلك أن المسلمين قد عرفوا نقصا في المعرفة بسنن التاريخ والحضارة وإن عايشوا هذه السنن ومارسوها عمليا. ولذلك لم تظهر الاهتمامات بحقيقة السنن كأبحاث ونظريات إلا في عصور متأخرة، بدأت فيها نجوم الحضارة الإسلامية تغيب كما هو معروف في حياة إبن خلدون، الذي كان آخر مصباح اتقد فأنار تلك الفترة الأخيرة من العصور الذهبية للأمة الإسلامية، وكان آخر ومضة تألقت في تلك الحقبة التاريخية. وحتى مع ظهور هذه الومضات الفكرية العلمية بقي فقه المسلمين لسنن الحياة متخلفا لا يتجاوب مع التكثيف القرآني لقصص الأمم البائدة."[30]

إنه بالرغم من أهمية هذا القول وصدقه في بعض تقريراته، وخاصة في بعض مراحل الحضارة الإسلامية حين آلت إلى ثقافة الأفول كبديل عن ثقافة السنن والفعالية، إلا أن هذا الاستنتاج يحتاج إلى مزيد بحث وتدليل وخاصة في المراحل المبكرة والمتقدمة، التي كانت فيها الحضارة الإسلامية في أقوى فعاليتها الحضارية، بسبب إلتزامها بالسنن وتسخيرها في مختلف فعاليات الفعل الحضاري. ففي هذه المراحل كانت جهود العلماء المسلمين في مجملها جهودا سننية تسعى جاهدة للإلتزام بقواعد التفكير السنني المنهجي؛ مما سمح للكثير منهم بالإبداع في مختلف العلوم الشرعية والعقلية والكونية[31] والطبيعية،

ذلك في نظري، إحدى أخطر الاختلالات أو النواقص المعرفية والمنهجية في منظومتنا الثقافية، ومن ثم في أدائنا الحضاري العام، يوم عجزنا عن المحافظة على ريادتنا الحضارية، ويوم عجزنا كذلك عن تحقيق نهضتنا الحضارية المطلوبة، التي طال ليل مخاضها!...ويقتضينا الإنصاف هنا، أن ننوه بالمحاولات التأسيسية الأصيلة، لكل من ابن خلدون قديما ومالك بن نبي حديثا ... ومن سار من المفكرين والعلماء في مضمار استكمال تأسيس وبناء منظومة علوم فلسفة التاريخ والحضارة، كمصب للوعي الاستخلافي أو الحضاري؛ المؤسس للنهضات، والمؤصل والمفعل لها." برغوث، الطيب. **مدخل إلى الصيرورة الاستخلافية**، مصدر سابق، ص 3. وهنا ينبغي التأشير إلى أن الباحث قدم بعض التعليلات لغياب علم السنن كما أشار إلى أن هذا الغياب بدأ من اللحظة التي عجزنا فيها عن المحافظة عن ريادتنا الحضارية، وهذا العجز كان متأخرا في حركة الحضارة الإسلامية التي كانت في قرونها الأولى أكثر إلتزاما وتوافقا مع السنن الإلهية وتسخيرا لها في الفعل الحضاري.

[30] عويس، عبد الحليم. **تفسير التاريخ: نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ**، القاهرة: دار الصحوة ، 1986، ص11.

[31] انظر: الغمراوي، محمد أحمد. **في سُنن الله الكونية**، القاهرة: طبعة لجنة التأليف، 1936.

وخاصة في جوانبها المنهجية التي تعبر عن القدرة الفائقة على التنظير والتأسيس والتجريد والتقعيد للعلوم والمعارف؛ حيث ضرورة الالتزام بسنن التفكير العلمي المنهجي.

وتوضيحا للبس الذي قد يثور في الذهن من رأي الباحث السابق حول ابن خلدون فإننا نؤكد أن ابن خلدون صاحب جهد منهجي متميز في التقعيد للفقه السنني ولعلم السنن العمرانية، ولكنه من جهة أخرى يعتبر حلقة في سلسلة الوعي السنني والثقافة السننية التي تميزت بها الحضارة الإسلامية، وتميزت بها جهود العلماء المسلمين في كثير من جوانبها المشرقة. إن المطلوب هو التفريق بين العلم المقعد للسنن، وبين الوعي السنني والثقافة السننية التي تصبح جزءا من الشخصية ومن الممارسة السلوكية العامة للفرد والمجتمع. والعلم لكي يقعد ويؤصل ينبغي أن يأخذ دورته الكاملة ووقته الكافي، وينبغي أن تكتمل عمليات إنضاجه وتعميقه وتأسيسه وقد يأخذ هذا الأمر أجيالا، ويحتاج إلى ظروف وشروط قد لا تكون متوفرة في كثير من مراحل التطور الفكري للمجتمع الإسلامي المتقدم. ولكن الوعي والثقافة السننية والممارسة السننية تكون سابقة لتقعيدات العلوم، وشكلياتها وشرائطها. والوعي السنني والثقافة السننية أكثر تحررا من قوالب العلوم، وضغوطات المنهج المدرسي. ولهذا فالوعي السنني والثقافة السننية من أهم روافد القوة والقدرة التي ترفد الأمة، وتغذي كل أفراد المجتمع، ويصل تأثيرها إلى كامل ثقافة المجتمع، فيستفيد منها العام والخاص والعالم والمتعلم، بخلاف العلم الذي يحتاج إلى حملته المتفرغين له. وقد عبر أحد الباحثين عن هذه الفكرة بطريقة أخرى حين قال: "فالعلم يبقى مضبوطا قابلا للتكرار ويمكن أن يدرس في الجامعات ومجالس الدرس، أما الفكر فينبغي أن يكون حرا طليقا من القواعد والاصطلاحات. ففي مرحلة الفكر ينبغي أن يفهم بعضنا بعضا؛ لأنه لم تولد بعد المصطلحات ولم توضع بإزائها معان محددة، بل تكون فكرة يحاول المفكر أن يستولدها وأن يستنبطها، ثم بعد ذلك تجلس الجماعة العلمية وتحاول أن تجعل لها لفظا، وأن تضع لها مصطلحا وتسير عليه، فيتحول الفكر إلى علم. ومن هنا فلا بد لنا من أن نرجع بالفكر لكي يغذي العلم ويطور طرق نقله ومضمونه كما كان الأمر في القرون الأولى."[32]

---

[32] هيشور، محمد. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، مصدر سابق، ص 9-10.

ومن هنا ينبغي التفريق الواضح بين الوعي والثقافة والممارسة للسنن، وبين تقعيد علم السنن وصياغته وتحويله إلى علوم لها مناهجها وفنونها وأنساقها وأطرها وتطبيقاتها. وهذا الذي ينبغي الانتباه إليه حين التعامل مع جهود العلماء المسلمين الأقدمين، في مجال الالتزام بالسنن والوعي عليها وتضمينها في كثير من جهودهم بصور وأشكال متنوعة ومتعددة كما سيوضح لاحقا. وبهذه الصورة نستطيع أن نتجنب أولا مسألة وصف جهودهم بالتقصير في تدوين وكتابة علوم خاصة بالسنن الإلهية، مما يوحي بأنهم لم يهتموا بموضوع السنن وتركوه مهجورا. وثانيا تجنب حبس أنفسنا عن الاستفادة مما في جهودهم وتراثهم، من أفكار ووعي ومناهج وقواعد وتوجيهات سننية مفيدة جدا في أي تأسيس لعلم السنن الذي نطمح إليه اليوم.

ثانيا: حضور الوعي السنني والثقافة السننية وصوره المتنوعة في جهود العلماء المتقدمين

إن البحث الحالي محاولة لإزالة بعض اللبس القائم، في تفهم واستيعاب مسألة حضور الفقه السنني والوعي السنني والثقافة السننية في كتابات وجهود علماء المسلمين المتقدمين. والافتراض الأساسي الذي ينطلق منه البحث هو: أن الكثير جدا من جهود العلماء المسلمين الأقدمين، سواء الذين اشتغلوا بالعلوم الشرعية والدينية بكل أنواعها، أو العلوم الكونية والطبيعية أو العلوم الاجتماعية والإنسانية –ليس بمفهومنا المعاصر ولكن بمفهومهم هم للمعرفة الخاصة بالإنسان والمجتمع والثقافة وغيرها– كانوا على وعي كبير بالسنن وأهميتها، وتمكنوا فعلا من توظيفها في مختلف العلوم[33] والمعارف، مع التعبير عنها

[33] انظر مثلا جهود: الأصفهاني، الراغب. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، القاهرة: دار الصحوة، 1985. الأصفهاني، الراغب. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، بيروت: دار الغربي الإسلامي، 1988. الرازي،= =أبو بكر. **منارات السائرين ومقامات الطائرين**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987. الغزالي، أبو حامد. **جواهر القرآن**، بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992. والغزالي، أبو حامد. **معيار العلم**، القاهرة: دار المعارف، د.ت. وابن قيم الجوزية. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت: مؤسسة الرسالة: 1986، وابن قيم الجوزية. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، الإسكندرية: مكتبة حميدرو، 1979. ابن رشد، أبو الوليد. **تهافت التهافت**،

وعن الوعي السنني والفقه السنني والثقافة السننية بلغات وأشكال وصور مختلفة، قد لا يظهر فيها لفظ السنن أو القوانين.

ولو تأملناها فإننا نجدها تعبر عن فقه سنني عميق، وعن التزام كبير بالسنن وتسخيرها سواء على مستوى التنظير واكتشاف العلوم والمعارف، أو على مستوى الممارسة والتنفيذ والتطبيق، الذي كان من ثمراته تشكيل حضارة إسلامية قوية وفعالة، في مختلف مناشط الحياة الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفنية والعمرانية والعسكرية والأدبية وغيرها. وتتأيد هذه الفرضية بما نعثر عليه من أفكار وتوجيهات ونظريات ضمنها الكثير من العلماء في مختلف التخصصات كتبهم ومؤلفاتهم، كما نعثر عليها في الممارسات والحلول والإنجازات المتحققة على مستوى الواقع وفي مختلف مناشط الحياة. يقول الشيخ محمد عبده —وهو محق– في قوله: "فلا يحتج بعدم تدوين الصحابة لهذا العلم، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها القواعد والأصول، وفرعت منها الفروع والمسائل، ولا شك أن الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها، يعني أنهم لما لهم من معرفة بأحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها، وما كانوا عليه من العلم والتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها."[34] إن هذه الملاحظة القيمة تقدم لنا المفتاح الأولي لتفهم حقيقة السنن وحقيقة وعي علماء الأمة المتقدمين بها، وعلى تطبيقها والتزامها والكشف عنها في مختلف مجالات العلوم

القاهرة: دار المعارف، 1980، ابن رشد، أبو الوليد. **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة**، القاهرة: المكتبة المحمودية، 1968. إن معظم هذه الكتب تزخر بالكثير من التحليلات والأفكار والخلاصات التي تعبر عن الوعي السنني الكبير الذي تمتع به هؤلاء العلماء، وعن مدى فهمهم وتوظيفهم لموضوع السنن في دراساتهم وأبحاثهم المنهجية السننية العميقة.

[34] هيشور، محمد. **سُنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، مصدر سابق، ص 9. ومن المستحسن الاطلاع على تعليق علي جمعة على قول الشيخ محمد عبده والسياق الذي أورده فيه.

والنشاط العمراني الحضاري البشري. فليس من الضروري أن يظهر علم خاص يدعى علم السنن، أو فرع من فروع المعرفة الخاصة بالفقه السنني، حتى نستدل على حضور أو غياب الفقه والوعي السنني في جهود علماء المسلمين المتقدمين. وعادة ما يكون التقعيد للعلوم والمعارف بعد مرور أزمان متطاولة من ممارستها وعيشها وتحويلها إلى ثقافة ووعي وجزء من موقف الإنسان العام وطريقة حياته وأسلوب عمله ومنهج سلوكه.

وتدوين علم مستقل بالسنن من عدم تدوينه، لا يقدم استنتاجا منطقيا أو عقليا على عدم حضور مفهوم السنن، وعدم استكشافه وعدم تسخيره وتوظيفه، في مختلف مجالات الفعل الإنساني سواء النظري أو العملي المتعلق بالممارسة. وإذا كان حديث الشيخ محمد عبده منصبا حول الصحابة وموقفهم من تدوين علم للسنن، فمن الأهمية أن نؤكد أن الذين جاءوا من بعد الصحابة والتابعين من علماء المسلمين، قد اهتموا اهتماما كبيرا بموضوع السنن، وحاولوا تضمينه في كتاباتهم وممارساتهم وأفعالهم ومواقفهم في مختلف مناشط الحياة، وفي مختلف فعاليات جوانب الفعل الحضاري والعمراني المنصب حول بناء الحضارة الإسلامية. ومن هذا المنطلق فإن البحث الحالي يؤكد بقوة حضور الوعي السنني والثقافة السننية والفقه السنني في جهود كثير من علماء المسلمين وفي مختلف المجالات، ومن هنا فإبن خلدون مثلا لم يكن هو البداية، مع الاعتراف الكامل بالجهد النوعي المتميز الذي قام به، من أجل التأسيس لعلم العمران السنني والإحياء لفقه السنن أو لثقافة السنن في المجتمع الإسلامي. بل سبقه علماء كثير منذ أيام الإمام الشافعي –ومن قبله– الذي كان ممن أسهموا بقسط وافر للتأسيس للفقه السنني في مجال التفكير المنهجي السنني الأصولي، وغيره من العلماء مرورا بالجويني والغزالي وابن تيمية وابن قيم الجوزية وعزالدين بن عبد السلام والشاطبي وابن رشد وغيرهم كثير. يقول أحد المفكرين المسلمين المعاصرين: "وقد كان بودي أن أخصص فصلا لعرض ومحاولة تقييم الدراسات السننية السابقة، لكن سعة الموضوع وتعدد مجالاته وتنوعها...في كتب التفسير كالطبري والرازي، وابن عطية، والقرطبي، ودقائق التفسير لابن تيمية، والتفسير القيم لابن القيم...وروح المعاني للألوسي، ومحاسن التأويل للقاسمي... ودراسات فكرية كثيرة، أخص بالذكر منها مقدمة ابن خلدون، وكتابات الإمام الغزالي، والعز بن عبد السلام، وابن الجوزي،

والشاطبي، وابن الأزرق، وابن تيمية."[35] إن جهود هؤلاء وغيرهم كثير وفي مختلف مجالات المعرفة الشرعية والعقلية والكونية، تشتمل على توجيهات وأفكار سننية، بعضها مستقاة مباشرة من القرآن والسنة وأعمال الصحابة والتابعين، وبعضها مستقاة من التأمل والنظر العقلي، وبعضها مستوحى من الخبرة والممارسة والفعل الحضاري، وبعضها مستجلب من التاريخ والتجارب الإنسانية السابقة.

إن الافتراض السابق يقودنا إلى نقطة أخرى أكثر أهمية، وهي أنه ينبغي أن نسترجع جهود وتراث وأفكار علماء المسلمين القدماء، في مختلف مجالات المعرفة والبحث والممارسة الحضارية، محاولين الكشف عما تشتمل عليه تلك الجهود من وعي سنني وفقه سنني وثقافة سننية؛ بما في ذلك القواعد والمناهج والأصول والتوجيهات والممارسات التي التزمت السنن وأبرزتها بصور وأشكال مختلفة. فليس المطلوب هو تقييم سننية تلك الجهود وإلتزامها بالفقه السنني من خلال البحث في علم خاص بالسنن، وليس المطلوب هو اكتشاف حجم وكمية النصوص التي لها صلة بلفظة السنن، ولكن المقصود هو أن نكتشف كيف تحول العلم بالسنن والالتزام بالسنن والفقه السنني، إلى ثقافة سننية وإلى وعي سنني يحمله الإنسان والمجتمع بشكل أصبح ممارسة يومية ومنطقا عمليا، يقود عمليات الفكر والنظر والممارسة والفعل الحضاري في عمومه.

فالإشكالية التي أثارها البحث في البداية لا ينبغي أن تطرح على مستوى إثبات حضور أو غياب علم للسنن في تراث العلماء الأقدمين، وإنما على مستوى الكشف عن الوعي السنني والثقافة السننية التي هي في النهاية تجسيد للسنن وممارسة عملية لها. والأجدى أن يركز الباحثون في كشف تلك القدرة الهائلة –لدى الكثير من علماء الأمة خصوصا ولدى الكثير من أفراد هذه الأمة عموما– على جعل العلم بالسنن والفقه بالسنن[36] وعيا وثقافة وممارسة لا تحتاج إلى كثير من التأسيس النظري، ولكن تمتاز بالإنجاز والالتزام والتسخير في مختلف مجالات المعرفة والأفعال العمرانية الحضارية المتنوعة.

---

[35] برغوث، الطيب. **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مصدر سابق، ص 4.

[36] راشد بن سعيد شهوان، السنن الربانية في التصور الإسلامي، الرياض، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، (رسالة دكتوره)، 1411هـ.

إن الظاهرة الجديرة بالتأمل في جهود وتراث وفكر علماء الأمة المتقدمين، ونخبها التي قادت حركة البناء والتشييد والعمران المتعلق بالأمة عموما، هي أن إبداعات هؤلاء وأعمالهم أثمرت حضارة بأكملها، بما تعنيه الحضارة من ترق معرفي وروحي وأخلاقي ونفسي واجتماعي وسلوكي واقتصادي وسياسي وعسكري وثقافي وعمراني وأدبي وفني...ولم يكن ممكنا لأمة الإسلام ولهؤلاء العلماء والقادة والجماهير، أن يبنوا حضارة في مستوى تلك الحضارة الإسلامية الكبيرة والعميقة والمترامية الأطراف، إذا لم يتبع أولئك الناس سنن الله في الوعي والفهم والمعرفة والنظر والعبادة والإعمار والممارسة والإنجاز الحضاري. فليس متصورا أن تنشأ حضارة[37] قوية ومتوازنة بالصورة التي برزت بها الحضارة الإسلامية، دون وعي صارم والتزام واضح وتسخير فاعل للسنن الإلهية في مختلف مجالات الحياة.

إن المطلوب هو أن نعيد قراءة جهود الفكر والتراث الإسلامي بمنطق حضاري متكامل، يتيح لنا إعادة استكشاف تلك الحقيقة الكبرى التي شكلت مبدأ أصيلا في ثقافة الأمة الحضارية–حينما كانت أمة حضارية سننية– وهي التزامها بالوعي السنني وبالثقافة السننية فهما وممارسة، وخاصة حينما كانت في أعلى درجات فعاليتها الحضارية. ومن هنا يستوجب الأمر تجاوز فكرة الحديث عن حضور أو غياب علم السنن، إلى استكشاف الجهود الهائلة التي خلفها الكثير من علماء المسلمين في كتاباتهم[38] ومؤلفاتهم في مختلف العلوم، والتي تحمل معاني وقيم وتوجيهات وقواعد وأصول ومبادئ سننية، ضرورية لبناء ما ينشده ويحتاجه المسلمون المعاصرون فعلا وهو علم السنن.

---

[37] هذا لا يعني عدم وجود نقاط الضعف والفساد والوهن في بعض جوانب هذه الحضارة ومفاصلها ومراحلها المختلفة. فهذا أمر واقع وخاضع كذلك للسُنن الإلهية.

[38] لقد لاحظت في كتابات بعض الباحثين الذين يشتغلون بموضوع السنن الإلهية ويزعمون أن جهد علماء الأمة المتقدمين في مجال السنن ضئيل، أنهم في معظم ما يذهبون إليه من آراء يستدلون بأفكار وآراء العلماء المتقدمين وبشكل كبير جدا.

ثالثا: نماذج للوعي السنني، والثقافة السننية من خلال جهود العلماء المتقدمين

على الرغم من تعذر تقديم دراسة استقرائية مستوفية لحقيقة مفهوم السنن الإلهية[39] ومجالات تداوله، ومديات حضوره، وأشكال توظيفه ضمن نطاق الفكر الإسلامي المبكر، فإن مسحا أوليا للأدبيات المتوفرة يشير إلى حقيقة أساسية هي: أن الفكر الإسلامي في أدواره ومراحله المتعددة، وخاصة المبكرة منها لم يغب عنه مفهوم السنن الإلهية، مع ملاحظة الفارق في تعريفه وفي تحديد مضمونه وفي حضوره وفي تطبيقاته وفي المصطلحات المستخدمة للتعبير عنه، وفي طريقة عرضه في مختلف الأدوار والمراحل. وإذا كان واضحا أن جهود العلماء الأقدمين لم تنصب على التأليف المباشر تحت موضوع "فقه السنن الإلهية" أو "علم السنن الإلهية"، كما هو الحال في مختلف العلوم الآخرى مثل: الفقه وأصول الفقه وعلوم الحديث وعلوم القرآن وعلوم العقيدة وعلوم اللغة وغيرها، فإن جهودا كثيرة خصصت للحديث عن مفهوم السنن كمصطلح –ولو بشكل مقتضب وليس بصورة مفهومية أو معرفية تبحث في جذور المفهوم– عند الكثير من العلماء من أمثال الغزالي[40] وابن تيمية وابن حزم[41] وابن رشد[42] وغيرهم، وكذلك عند الكثير ممن اشتغلوا بالتفسير، وعلوم التاريخ وغيرها.

---

[39] انظر: الحميد، حسن صالح. "سنن الله في الأمم من خلال القرآن"، (رسالة دكتوراه، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ش414هـ).

[40] تأمل مثلا هذه الإشارات عند الغزالي لتستدل بها على وعيه السنني العميق: "الأسباب التي بها يجلب النافع ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون ظنا يوثَق به، وموهوم وَهما لا تثق به النفس ولا تطمئن له. فالمقطوع به مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها، بتقدير الله ومشيئته، ارتباطا مطردا لا يتخلف...فإنك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعا دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر مَلَكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله تعالى."الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت: دار الندوة الجديدة، د.ت)، مج4، ص 265، 285. وقوله: "وأما النظر في أنه هل هو لزوم ضروري ليس في الإمكان تغييره، أو هو بحكم جريان سنة الله تعالى، لنفوذ مشيئته الأزلية التي لا تحتمل التبديل والتغيير؟ فهو نظر في وجه الاقتران، ولا في نفس الإقتران. فليفهم هذا، وليعلم أن التشكيك في موت من جزت رقبته وسواس مجرد، وأن اعتقاد موته يقين لا يستراب فيه." الغزالي، معيار العلم في المنطق، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م)، ص 180. هذه مجرد أمثلة للنزعة السننية في التفكير، وليس ذكرها هنا يعني القبول بها وإنما للاستدلال على هذه النزعة في التفكير والنظر إلى المسائل المختلفة.

وعلى الرغم من عدم تخصيص فرع محدد لعلم السنن أو الفقه السنني في النظام المعرفي للفكر الإسلامي المبكر، إلا أننا لا نشاطر بعض الباحثين الذين توحي آرائهم بضعف الاهتمام وضآلة الوعي السنني والثقافة السننية لدى علمائنا القدماء. كما نؤكد على أن طبيعة منظومة الفكر الإسلامي المتقدم، لم تجعل من موضوع السنن موضوع علم مستقل، ولكنه جعلته موضوعا وهدفا وركيزة لمختلف العلوم حينما أبرزت ضرورة الوعي السنني، وحينما أصبحت النزعة السننية في التفكير جزءا لا يتجزأ من منظومة الوعي والتربية والثقافة والمعرفة والعلم الإسلامي. ولهذا نجد أن الوعي السنني والتعبير عن السنن موزع ومتناثر في مختلف الكتابات والتخصصات، من العلوم الشرعية إلى العلوم العقلية إلى العلوم الكونية والطبيعية، إلى كامل منظومة المعرفة في الفكر الإسلامي، قبل وصوله إلى أعتاب التمزق السنني والتشتت الحضاري، الذي أعقب مرحلة القوة والريادة والشهادة السننية على حضارات العالم التي عاصروها.

فلئن لوحظ غياب لوجود فرع مستقل من المعرفة الإسلامية المتعلقة بالسنن الإلهية ضمن نسق الفكر الإسلامي المبكر، فإن هذا لا يعني غياب مفهوم السنن أو غياب الثقافة

---

41 يقول ابن حزم: "إن للأشياء طبائع وماهية تقف عندها ولا تتجاوزها" **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، بيروت: دار المعرفة، 1986، ج1، ص 6؛ يقول: "إن الباري عز وجل خلق المعلولات على ما هي عليه من الإتقان والإحكام والثبات باضطراره للعلل التي وجبت المعلولات من أجلها." الرد على الكندي، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984، ج4، ص 347. للمزيد من هذه النصوص والتعليق الجيد عليها راجع: محيي الدين، حازم زكريا. "مفهوم السنن عند محمد رشيد رضا"، مصدر سابق، ص49 وما بعدها.

42 تأمل مثلا ما يقوله ابن رشد عن الأسباب والسنن لتستنبط مدى اهتمامه وعمقه وعيه عليها: "لا ينبغي أن يشك في أن هذه الموجودات قد تفعل بعضها بعضا، ومن بعض، وأنها ليس مكتفية بأنفسها في هذا العمل، بل بفاعل من خارج، فعله شرط فعلها، بل في وجودها فضلا عن فعله." ابن رشد. **تهافت التهافت**، مصدر سابق، ص787.؛ وقوله: "إن الله تعالى هو المخترع لجواهر جميع الأشياء التي تقترن بها أسبابها التي جرت العادة أن يقال أنها أسباب لها. فهذا الوجه المفهوم من أنه لا فاعل إلا الله هو مفهوم يشهد له الحس والعقل والشرع. أما الحس والعقل، فإنه يُرى أن ههنا أشياء تتولد عنها أشياء، وأن النظام الجاري في الموجودات إنما هو من قبل أمرين: أحدهما ما ركّب الله تعالى فيها من الطبائع والنفوس، والثاني: من قبل ما أحاط من الموجودات من خارج." ابن رشد. **مناهج الأدلة**، مصدر سابق، ص118.

السننية والوعي السنني عند معظم علماء المسلمين. وفي مختلف التخصصات[43]. بل على العكس هناك وعي سنني عميق لدى قطاع كبير من علماء الأمة. ويتضح هذا مثلا في جهود العلماء الذين اشتغلوا بالعلوم المنهجية مثل: علماء أصول الفقه والشريعة ومناهج التفقه الشرعي ومناهج التفسير ومناهج العلوم الكونية العقلية والصناعة الفلسفية؛ حيث يلاحظ على الكثير من الكتابات قدرتها الفائقة على اكتشاف السنن والقوانين، ووضع قواعد ومعايير ومناهج وضوابط لفهم الظواهر والوقائع الاجتماعية.

وبهذا الشكل نجد الكثير من السنن والتوجيهات السننية منثورة في هذه الكتابات، دون أن تشكل مباحث مستقلة في الموضوع أو تشكل اهتماما محوريا بارزا. وهنا تظهر مسألة السنن وكأنها جزء من الثقافة العلمية والعملية للأمة، ومن الوعي الإسلامي العام ومن الممارسة الفعلية العملية. وسوف نذكر بعض العينات لنماذج كثيرة جدا من العلماء وجهودهم ذات النزعة السننية، والتي تعكس عمق الوعي السنني والثقافة السننية لديهم. ومن العينات الدالة على حضور الفقه السنني في كتابات الكثير من علماء المسلمين

---

[43] يمكن مثلا ملاحظة حضور الفقه السنني والنزعة السننية في النظر إلى الظواهر سواء الكونية أو الطبيعية أو الإنسانية أو الأخلاقية. ويمكن الإشارة إلى جهود بعض الأعلام الذين اشتغلوا بمسائل الطبيعيات والكونيات والعلوم الرياضية والعقلية من أمثال: محمد بن الحسن بن الهيثم في كتابه: (علم المناظر في البصريات)، ومحمد بن موسى الخوارزمي في كتابه: (الجبر والمقابلة)، وجابر بن حيان بن عبد الله في كتابه: (علم الهيئة). فهؤلاء العلماء وغيرهم ظهرت عندهم بوادر النزعة السننة وثقافة البحث عن القانون في الظواهر الكونية. كما ظهرت هذه النزعة كذلك في جهود بعض المؤرخين والجغرافيين من أمثال: علي بن الحسن بن علي المسعودي من خلال كتابيه: (مروج الذهب ومعادن الجوهر، وأخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال والممالك الدائرة)، ومحمد بن أحمد البيروني في كتابه: (الأثار الباقية عن القرون الخالية)، ومحمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي من خلال مؤلفه: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ومحمد بن عبد الله بن محمد ابن بطوطة من خلال كتابه: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). ونفس التوجه السنني نجده عند الكثير من كبار علماء الأخلاق والفقه والأصول والتصوف والاجتماع السياسي من أمثال: أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب بمسكويه، من خلال كتابه: (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)، وعلي بن حبيب الماوردي من خلال كتابيه: (قوانين الوزارة وسياسة الملك، والأحكام السلطانية)، وأبو حامد الغزالي، من خلال كتبه: (إحياء علوم الدين، والمستصفى في أصول الفقه، والمنقذ من الضلال)، وأبو محمد بن أحمد بن حزم الظاهري من خلال كتابه: (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية في (مجموعة فتاويه). لمزيد من التفاصيل راجع محيي الدين، حازم زكريا. "مفهوم السنن"، مصدر سابق، ص45 وما بعدها.

القدماء، ما نعثر عليه عند عالم مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن قيم الجوزية، والعلامة ابن خلدون، والإمام أبو إسحاق الشاطبي، والعالم ابن حزم الظاهري، وغيرهم كثير جدا.

ومن الأمثلة التي توضح لنا سننية جهود ابن تيمية رحمه الله، والتزامه بهذه السنن الإلهية في فهمه ومنهجه واجتهاداته وأفعاله، هذه المقتطفات المختصرة جدا من كتاباته، حيث يقول رحمه الله في معرض حديثه عن الأسباب: "ومن الناس من ينكر القوى والطبائع...وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع، ينكرون الأسباب أيضا، ويقولون: إن الله يفعل عندها لا بها، فيقولون إن الله لا يشبع بالخبز، ولا يروي بالماء ولا ينبت الزرع بالماء، بل يفعل عنده لا به، وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفة صريح المعقول والحس."[44] وفي موقع آخر من جهود ابن تيمية التنظيرية يدفع بالمسألة السننية بقوة إلى الوعي الإسلامي، ويذكر بأهميتها ويؤكد ضرورة الأخذ بها، فيقول: "والسنة هي العادة في الأشياء المتماثلة... وهي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثلما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله بالاعتبار... فإنه -سبحانه وتعالى- إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض، ولا يتبدل، ولا يتحول، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل. وأنه سبحانه وتعالى يسوي بين المتماثلين، ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضع كقوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ (الحشر: 2). ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسننه لم يصح الاعتبار بها، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره."[45] ويقول ابن تيمية في موضع آخر: "فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، ومن قبلها من الأمم، وذكر في غير موضع أن سنته مطردة وعادة مستمرة. فينبغي للعقلاء أن يعتبروا

---

[44] ابن تيمية، أحمد عبدالحليم. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978، ج9، ص287-288.

[45] ابن تيمية، أحمد عبدالحليم. **جامع الرسائل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط2، جدة: مطبعة المدني، 1984، ج1، ص54-55.

سنة الله وأيامه في عباده ودأب الأمم وعاداتهم."[46]ويزيد ابن تيمية في توجيهه إلى أهمية الفقه السنني قوله: "﴿ولن تجد لسنة ألله تبديلا﴾ (الفتح: 23)، تعم كل سنة له، وهو يعمم سنته في الطبيعيات والدينيات، ولكن الشأن أن تعرف سنته، وحقيقة أنه إذا نقض العادة، فإنما ذلك لاختصاص، كما نقول: إذا خصت العلة لفوات شرط أو وجود مانع."[47]

كما يشير ابن تيمية إلى ضرورة موافقة السنن وعدم التصادم معها؛ لأن ذلك يؤدي إلى انتقامها وجريانها على كل من تجاوزها وعارضها. "فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل، وانتصر لهم...وبالعكس، البدع ومخالفة ما جاء به الرسل سبب لشر الدنيا والآخرة."[48] ومن الأمثلة الأخرى التي تبين مدى التزام ابن تيمية بالتفكير السنني في اجتهاداته قوله: "ومن نصب شخصا كائنا من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا...وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين، مثل أتباع الأئمة والمشايخ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار، فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم. فينبغي للإنسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه، والعمل به، فهذا زاجر. وكمائن القلوب تظهر عند المحن، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة، أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله."[49] إن هذا الفهم وهذا الاستدلال يعبر عن عمق في الفقه السنني الذي أردات الشريعة ترسيخه في علم العلماء وفي ثقافة الأمة السننية.

ومن أمثلة حضور الوعي السنني والفقه السنني في جهود علماء المسلمين المتقدمين ما ذكره العالم الجليل ابن قيم الجوزية في جل كتبه المتنوعة. وللإستدلال المقتضب جدا أذكر هنا نصوصا مختصرة تدل بقوة على عمق النزعة السننية في تفكيره. يقول –رحمه الله– في حديثه عن السنن بأنها "هي محل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والنجاح

---

[46] ابن تيمية، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، مصدر سابق، ج28، ص420.

[47] ابن تيمية. **جامع الرسائل**، مصدر سابق، ج1، ص54–55.

[48] ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**، مصدر سابق، ج13، ص177–180.

[49] المصدر السابق، ج20، ص 8.

والخسران... (فبها) عرف الله، وبها عبد، وبها أطيع، وبها تقرب إليه المتقربون، وبها نصر حزبه ودينه، وبها أرسل الرسل، وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد... فالوقوف معها والالتفات إليها، والنظر إليها هو الواجب شرعا، كما هو الواقع قدرا...فالدين على ذلك هو إثبات الأسباب والوقوف معها، والنظر إليها، والإلتفات إليها، وإنه لا دين إلا بذلك، كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة مبناهما على إثباتها...فإن الوقوف معها فرض على كل مسلم، ولا يتم إسلامه إلا بذلك."[50] إن هذا الفهم وهذا العمق في إدراك حقيقة السنن الإلهية وأهميتها في الحياة وفي الاستخلاف وفي العبادة والعمل، ليدل دلالة قاطعة على العمق السنني لجهود الكثير من علماء الأمة.

وفي مؤلف آخر يتعمق ابن قيم الجوزية في ذكر الصيغ التي تسمح لنا باكتشاف السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم فيقول: "كل موضع رتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف أفاد كونه سببا له؛ كقوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾ (النور: 38)، وقوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (النحل: 88). وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط للجزاء، كقوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ (الأنفال: 29)...-) ووكل موضع رتب فيه الحكم على ما قبله بحرف يفيد السببية، كذكر حرف (الباء) تعليلا لما قبلها بما بعدها، كما في قوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ (آل عمران: 182)) وكل موضع صرح فيه بأن كذا جزاء لكذا أفاد السببية، كقوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ (السجدة: 17) والإتيان بكي الصريحة في التعليل، كقوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ (الحشر: 7) وذكر ما هو صريح في التعليل، وهو لفظ (من أجل)، كما في قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على

---

[50] ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبدالله. **مدارج السالكين بين منزلة إياك نعبد وأياك نستعين**، بيروت: دار الجيل، 1991، ج3، ص407-408. (بتصرف).

بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾(المائدة:32). وذكر الحكم الكوني لأو الشرعي عقيب الوصف المناسب له. ويقترن ذلك تارة (ب: إن) كقوله تعالى: ﴿آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ (الذاريات: 16). وتعليل الله تعالى عدم حكمه الكوني أو الشرعي بوجود مانع منه سبحانه، كقوله تعالى: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ (الزخرف: 33). وإنكار الله سبحانه وتعالى ادعاء من نفى الحكمة والغاية من الخلق وقال بالعبثية، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (المؤمنون: 115). وتقرير الله وتأكيده في القرآن على أنه تعالى لا يفرق بين المتماثلات، ولا يسوي بين المختلفات...كقوله تعالى: ﴿أفنجعل المؤمنين كالمجرمين﴾ (القلم: 26). وقوله تعالى: ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾ (القمر: 43). والتنصيص على السنن، كقوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (آل عمران: 137). وكقوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ (غافر: 85). وإخبار الله تعالى عن تركه بعض مقدوره تنزيها لذاته العلية/ لما يستلزمه من مفسدة في حق العباد، والمصلحة في تركه..كقوله تعالى: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا﴾ (القصص: 59) (وفي حق ذاته العلية) في قوله تعالى: ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ (غافر: 31).[51] إن هذه التحديدات الدقيقة لمسألة السنن والصيغ التي ترد بها في القرآن الكريم، لدليل على الاهتمام الكبير والفهم العميق والتوظيف الصحيح للسنن الإلهية في مختلف العلوم والمعارف. ومما لاشك فيه أن كتابات الكثير من العلماء تزخر بمثل هذه القواعد والتوجيهات السننية العظيمة، التي تعبر عن الوعي السنني العميق لدى علماء المسلمين المتقدمين.

---

[51] ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبدالله. **شفاء العليل في مسائل القضاء والحكمة والتعليل**، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، ص315 وما يليها.

ومن الأمثلة الأخرى للجهود والكتابات النوعية والعميقة التي أبدعها الفكر الإسلامي القديم، والتي تعبر عن النزعة السننية والعمق السنني، ما خلفه العلامة عبدالرحمن بن خلدون من خلال (مقدمته). وقد جاءت جهوده في مجال الدراسات السننية، أو التنظير لبناء وعي سنني على بعض ظواهر العمران والحضارة والثقافة والاستخلاف متميزة وعميقة. وقد تمكن ابن خلدون من التأكيد على قضية السنن وعلى ضرورتها المنهجية والمعرفية، ليس فقط في فهم ظواهر العمران البشري وتفسير حوادث التاريخ والاجتماع البشري، ولكن وبالدرجة الأولى في اكتشاف السنن وتسخيرها في الفعل العمراني، وفي الفعل الحضاري الممكن في الأرض. وفي الحقيقة يمكن أن يعد جهد ابن خلدون من الجهود الرائدة المتعلقة بالتنظير للفهم السنني لظواهر العمران والحضارة. فقد اكتشف هو بنفسه عشرات السنن المبثوثة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، وكذلك في أحداث التاريخ ووقائع الاجتماع الحضاري الذي درسه في كتابه الخاص بالتاريخ.

وعلى الرغم من أن ابن خلدون يمكن أن يعد من الرواد الذين ساهموا في بناء "علم السنن الإسلامي" الذي طبقه بجدارة وموضوعية في مجال العمران الحضاري البشري، إلا أن جهده الرائد في (المقدمة) لم يخصص للتنظير المنهجي والمعرفي لدراسة السنن، من حيث: تعريفها وخصائصها وأنواعها وأهدافها وضوابطها وشروط عملها وكيفية اكتشافها ومناهج تسخيرها، وصلاتها بمختلف العلوم الأخرى. ولكن الملاحظ أنه لم يكن هذا هو هم ابن خلدون أو هدفه من المقدمة، وإلا كان من أقدر العلماء على تقديم مثل هذا العمل. وهدف ابن خلدون هو أن يكشف النقاب عما سماه "بعلم العمران البشري"، في أبعاده التاريخية والدينية والاقتصادية والثقافية والنفسية والاجتماعية والفنية والصناعية... ولهذا فلم يكن إبن خلدون يهدف لتقديم دراسة نظرية عن السنن الإلهية، ولكن كان يحاول اكتشافها في عمقها التاريخي، وفي عمق فعاليتها الاجتماعية والحضارية والعمرانية والثقافية، مستخدما منهجا استقرائيا تحليليا تركيبيا فريدا من نوعه. ولكن يبقى الجهد الخلدوني جهدا رائدا على طريق بناء فقه أو علم إسلامي "للسنن الإلهية". ومن أمثلة نزوعه السنني قوله: "إن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته فيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث

والأصول في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب."[52]

ويتحدث عن نظام الأسباب المتقنة التي تتحكم في حركة الوجود والأشياء والأفعال فيقول: "إن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية والحيوانية، فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقر العادة، وعنها يتم كونها، وكل واحد من الأسباب حادث أيضا فلا بد له من أسباب آخر، ولا تزال الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إله إلا هو."[53] وينبه ابن خلدون إلى القوانين التي تحكم حركة الحياة وطبائع الاجتماع البشري بشكل مستفيض، ومن أمثلة ذلك قوله: "إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده."[54] ويقول كذلك في مقدمته لعلم العمران البشري: "فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر، فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان، وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته."[55]

ومن النماذج الآخرى التي اهتمت بالسنن أو بالفقه السنني –ولكن هذه المرة ليس في مجال علم العمران، ولكن في مجال علم مقاصد الشريعة أو في مجال الفقه الشرعي والمقاصدي والأصولي– أبو اسحاق الشاطبي في كتاب الموافقات في أصول الشريعة، فقد كان جهده متميزا في اكتشاف سنن الشريعة وسنن التفقه الشرعي، وسنن اكتشاف مقاصد الشريعة، وسنن تطبيقها أو تسخيرها لاستثمار هذا النص فهما وتنزيلا؛ من أجل

---

[52] ابن خلدون، عبدالرحمن. **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: عبد الواحد وافي، ط3، القاهرة: دار نهضة مصر ، 1979، ج1، ص 329.

[53] المصدر السابق، ج3، ص 1069.

[54] المصدر السابق، ج1، ص 320.

[55] المصدر السابق، ج3، ص 1011.

تجديد وعي الأمة وتجديد إلتزامها وتجديد قدراتها الاجتهادية، بعد أن أرهقتها عقود التقليد والتكديس والتولي. والدارس للموافقات مثلا سيلاحظ النزعة السننية أو الاهتمام بالفقه السنني والتفكير السنني، الهادف إلى فهم الشريعة وتنزيلها عبر الوعي على سننها وسنن الواقع الذي يحيط بها. ولكن ينبغي أن يبقى كذلك واضحا أن الإمام الشاطبي لم يخصص مبحثا أو مباحث تعنى بالتنظير لعلم السنن أو فقه الدراسات السننية، ولكن انطلت معظم أطروحاته بالوجهة السننية في النظر والتنظير. وفي دراساته نجد شكلا آخر متميزا في التفكير السنني، وهو قدرته الفائقة على استجلاب القواعد وصياغة[56] ما يمكن تسميته بالقواعد السننية، وإن كانت ذات صلة مباشرة بعلم المقاصد وقواعد وأصوله. وكما يقول الريسوني: "وللشاطبي ولع وعناية بتحرير القواعد الجامعة، وصياغتها صياغة دقيقة مركزة. ومعلوم أن القواعد الجامعة –في أي علم من العلوم– هي الركائز التي يقوم عليها، وينضبط بها. وفي إطارها تنتظم جزئياته، وتنمو نظرياته."[57]

---

[56] ومن أمثلة ذلك قوله: "لا يلزم في تعاطي الأسباب من قبل المكلف، القصد إلى مسبباتها. وإنما عليه الجريان تحت الأحكام المشروعة لا غير." الشاطبي، أبو اسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج1، ص193، "إيقاع السبب بمنزلة إيقاع المسبب، قصد ذلك المسبب أم لا" (الموافقات، ج1، ص 211)، "وضع الأسباب يستلزم قصد الواضع (الله) إلى المسببات" (الموافقات، ج1، ص 194). ="وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معا (الموافقات، ج2، ص 6)، "باستقراء أدلة الشريعة ثبت قطعا أن الشارع قاصد إلى حفظ المصالح الضرورية، والحاجية، والتحسينية (الموافقات، ج2، ص 49)، "المقاصد العامة للتعبد هي: الانقياد لأوامر الله تعالى، وإفراده بالخضوع، والتعظيم لجلاله والتوجه إليه" (الموافقات، ج2، ص 301)، "خلق الدنيا مبني على بذل النعم للعباد، ليتناولوها ويتمتعوا بها، وليشكروا الله عليها، فيجازيهم في الدار الآخرة. وهذان القصدان من أظهر مقاصد الشريعة" (الموافقات، ج2، ص 321)، "المقصد الشرعي من وضع الشريعة: إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا" (الموافقات، ج2، ص 168)، "الشارع لا يقصد التكليف بالشاق والإعنات فيه" (الموافقات، ج2، ص 121)، "الأصل في الأحكام الشرعية الاعتدال والتوسط بين طرفي التشدد والتخفيف. فإذا رأيت ميلا إلى أحد الطرفين، فذلك لمقابلة ميل مضاد في المكلفين" (الموافقات، ج2، ص 163).

[57] الريسوني، أحمد. **نظرية المقاصد عن الإمام الشاطبي**، ط2، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، 1992، ص 318.

إن هذا النتف اليسير من النماذج[58] التي ثبتت في هذا البحث وبصورة مقتضبة تدل بشكل واضح على عمق الوعي السنني لدى الكثير من علماء[59] الأمة المتقدمين. وقد لا يجانب أحدنا الصواب إن هو زعم أن هذه هي المسحة العامة والسنة المتكررة في معظم جهود علماء[60] المسلمين المتقدمين، على اختلاف تخصصاتهم ومجالات تفكيرهم وتنظيرهم. والبارز على الدوام في أعمالهم هو وعيهم بسنن الله سبحانه وتعالى وتوظيفها، إن على مستوى المنهج، أو على مستوى التحليل والاستنباط والاستقراء لمختلف القضايا التي عالجوها وتناولوها بالبحث والدراسة.

---

58 ونفس هذه النزعة السننية نجدها عند علماء آخرين من أمثال: الآمدي، سيف الدين. **الإحكام في أصول الأحكام**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983؛ الجويني، أبو المعالي. **البرهان في أصول الفقه**، ط2، تحقيق: عبدالعظيم الديب، القاهرة: دار الأنصار، 1400هـ؛ الدبوسي، أبو زيد. **تأسيس النظر**، مصر: المطبعة الأدبية، د.ت)؛ ابن عبدالسلام، عزالدين. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، تعليق وتحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، بيروت: دار الجبل، 1980.

59 ويمكن ملاحظة النزعة السننية في التفكير عند الكثير من المفسرين من أمثال، ابن كثير، عماد الدين. **تفسير القرآن العظيم**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت؛ الزمخشري، محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، بيروت: دار المعرفة، د.ت؛ السمين، أحمد بن يوسف، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم، 1986؛ القرطبي، محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: محمد إبراهيم الحفناوي ومحمود حامد عثمان، ط2، القاهرة: دار الحديث، 1996؛ الرازي، محمد بن عمر فخرالدين. **التفسير الكبير: مفاتيح الغيب**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1986.

60 تأمل مثلا ما ذكره ابن مسكويه في هذه المحاورة التي جاءت في كتابه (الهوامل والشوامل) ردا منه على سؤال طرحه عليه أبو حيان التوحيدي "لِمَ لَمْ يرجع الإنسان، بعد ما شاخ وخرف، كهلا ثم شابا غريرا، ثم غلاما صبيا، ثم طفلا؟ وعلام يدل هذا النظم؟ وإلى أي شيء يشير هذا الحكم؟ إن كل حركة قهرية تبتدئ بتزيد، ثم تنتهي إلى غاية، ثم تقف وقفة ثم تنحط. ولما كان مزاج الإنسان مركبا من الطبائع المتضادة، إنما كان بجامع جمعها، وقاهر قهرها حتى ألفها مع تضادها ونفور بعضها من بعض فصارت حركة قهرية، ومن شأن الحركة القهرية ما ذكرت من أمرها إذا لم يتبعها قاهر أبدا، فوجب في حركة النشوء ما وجب في كل حركة من جنسها، ولم يعد الشيخ كهلا، ثم شابا، لأن الحركة لم تقع على هذا النظام، ولا الشيخوخة هي غاية الحركة، بل هي غاية الضعف ونظيره الطفولة." مسكويه، أبو علي أحمد. **الهوامل والشوامل**، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف، 1951، ص122. إن هذا الفهم وهذا التحليل يبين لنا عمق النزعة السننية والنظرة المؤسسة على الوعي العميق للسُنن الإلهية، ولنظام الأشياء وطبائعها التي أجراها الله على نواميس وقوانين وهيئات لا تتبدل ولا تتغير إلا بإرادته ومشيئته. ولمزيد من التفاصيل انظر: شوقار، إبراهيم. "السنن الإلهية في القرآن"، مصدر سابق، ص 131 وما بعدها.

الخاتمة:

لقد تبين من خلال هذه الجولة المقتضبة في موضوع "قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر بين التأسيس النظري والوعي والثقافة السننية" أن أعمال الكثير من علماء المسلمين المتقدمين، تضمنت توجيهات وجهودا معتبرة ومتميزة في مجال فهم السنن الإلهية وإكتشافها وتسخيرها في مختلف مجالات الوعي، سواء على مستوى التقعيد لمناهج العلوم المختلفة، أو على مستوى تفسير القرآن، أو على مستوى استقراء التاريخ، أو استنباط الأحكام الشريعة الصالحة لحل مشكلات الناس والتفاعل مع أوضاع الأمة في مختلف مراحلها.

كما خلص البحث إلى أن قوة الحضارة الإسلامية الأولى، وإبداعها في مختلف ميادين الوعي والمعرفة والعلم والفنون والهندسة والطب والعمارة والثقافة وغيرها، كان بسبب التزام علمائها ووعيهم بالسنن ودورها في الاستخلاف والإعمار والشهود الحضاري الذي أنيط بالأمة. وأن علماء المسلمين القدماء تركوا تراثا فكريا ومنهجيا ومعرفيا كبيرا، يمكن أن يفتح الآفاق نحو بناء علوم قائمة بذاتها في مجال السنن الإلهية وتسخيرها. وأن علماء المسلمين اهتموا بالسنن كل في مجال تخصصه، وقد توزعت معرفتهم وخبرتهم السننية في مختلف التخصصات من علوم الشريعة والفقه، إلى علوم الحديث والقرآن، وعلوم العقيدة والفلسفة، وعلوم التفسير، والتاريخ، وعلوم الطبيعة والكون. وقد عبروا بصيغ وأشكال مختلفة عن وعيهم بالسنن. وأن كثيرا من الكتابات والتآليف التي تركها الكثير من العلماء، تتضمن قواعد وأصولا وتوجيهات وتطبيقات وتوظيفات متعددة ومتنوعة للسنن المختلفة.

كما خلص البحث إلى أن عدم تأسيس علم أو علوم قائمة بذاتها في مجال السنن، لا يعني عدم وجود وعي حضاري سنني وثقافة سننية رصينة وملتزمة بتوجيهات الوحي ورشد الخبرة الإنسانية. وقد تحدث علماء المسلمين عن السنن الإلهية ليس فقط من خلال تفاعلهم مع النص القرآني وتوجيهات السنة النبوية، ولكن كذلك بإعمال الفطرة والعقل وتتبع سنن الله في التاريخ والواقع والنظر في حوادث وعبر الأمم السابقة. وفي الأخير خلص البحث إلى أن هناك حاجة إلى تكثيف الدراسات والأبحاث، في مجال

استكشاف جهود علماء المسلمين وأعمالهم في ميدان بناء علم للسنن، وفي تشكيل الوعي السنني والثقافة السننية الملتزمة بتوجيهات الوحي، والمستفيدة من رشد الخبرة الحضارية الإنسانية القديمة والحديثة.